التقديم و التأخير فيما أُنْزل من كلام العلي القدير

إعداد / الباحث

زياد سند الغيان

تقديم

يعود اختياري لبحث التقديم و التأخير لما كان يجول في وجداني و خاطري من تساؤلات عن سبب هذه الظاهرة كلما مررت بمثلها في القرآن الكريم والسنة النبوية أو فيما قرأته من كلام العرب و أشعارهم، و السؤال الذي كان يراودني دائما: هل من فرق جوهري بين حالة التقديم و التأخير هذه في الجملة وحال الجملة لو صيغت بدونها؟ و بعد عدة قراءات و اطلاع تبين لي أن هناك أسباب عدة تطرق لها أهل العلم و البلاغة في هذا المجال، وأن أسلوب الصياغة البلاغية هذا لم يكن على عواهله، بل إن هناك جمالا لغويا و بلاغة تضفي قوة على المعنى الظاهر و الباطن، وكل على حسب فهمه للنص أو الكلام بما لا يتعدى المعنى المطلوب، فمنهم من يفهمه على أعلى مقام، ومنهم من يفهمه دون ذلك، و منهم من يفهمه على ظاهره، و يتفقون جميعا على أن هناك معنى قويا اريد من هذا الكلام، و يختلفون في درجة التباين والفهم. و هذا بدوره يضيف قوة في المعنى و سلاسة في اللغة وسرعة في ايصال المعلومة، وكما أن المرونة التي اتصفت بها لغتنا العربية أدت أيضا إلى الرقي و التميز بسبب هذه الخاصية من اللغة، و ميزها عن سائر اللغات الأخرى. إذاً هنا جمالا لغويا في هذه الظاهرة له أسبابه ومسوغاته، و أدى ذلك إلى التميز البلاغي في التقديم والتأخير، و هذا التميز أفضى إلى الإبداع و الإتقان للمعاني المنشودة من هذا التقديم والتأخير.

التقديم و التأخير فيما أنزل من كلام العلي القدير

يعد أسلوب التقديم و التأخير أحد الأساليب البلاغية التي تدل على فصاحة صانعه و إبداعه و مهارته في جذب انتباه السامع و إقناعه بما يريد، و هو فن من فنون التقديم و التأخير التي هي من أسس علم البلاغة قديما وحديثا، و هو رافد مهم يقوي حجة البيان و فصاحة اللسان، و يبين قوة مستخدمه و تحكمه وعلو فصاحته و قدرته على جعل الكلام ينقاد له بسهولة و سلاسة، و يشير الزركشي إلى هذا المعنى فيقول: " هو أحد أساليب البلاغة، فإنهم أتوا به دلالة على تمكنهم في الفصاحة، وملكتهم في الكلام وانقياده لهم، وله في القلوب أحسن موقع، وأعذب

مذاق"[١]، و يعضد هذا ما ذهب إليه الجرجاني "كثيرُ الفوائد جَمُّ المحاسن واسعُ التصرُّف بعيدُ الغاية لا يزالُ يفتَرُّ لك عن بديعةٍ ويُفضي بكَ إلى لطيفةٍ"[٢] .

و قد استفاض اللغويون في الحديث عن ظاهرة التقديم و التأخير واختلفوا فيه، و قد عده بعضهم من باب المجاز "لأنه تقديم ما رتبته التأخير كالمفعولات، وتأخير ما رتبته التقديم كالفاعل، نقل كل واحد منهما عن رتبته"[٣].

ينشعب التقديم في علم اللغة إلى نوعين: تقديم يختص بدلالة الألفاظ على المعاني، حيث يؤثر التقديم و التأخير في المعنى المراد فلو قدم المؤخر أو أخر المقدم لتغير المعنى و أراد من الكلام صاحبه غرضا بلاغيا لا يتأتى إلا بما صنعه من تقديم و تأخير، و آخر يختص بدرجة التقدم في الذكر لاختصاصه بما يوجب له ذلك، و هذا لا يؤثر في المعنى كتأثير السابق، فالتقديم و التأخير فيه سيان. و النوع الأول من التقديم الذي يتضمن حسا بلاغيا عاليا يزيد في التعبير معنى و جمالا يتمثل في "تقديم المفعول على الفعلِ وتقديم الخبر على المبتدأِ وتقديم الظرف أو الحال أو الاستثناء على العاملِ"[٤]، فهذا النوع من التقديم يقوم بوظيفة بلاغية و حجاجية تمتاز بها اللغة العربية عن غيرها من اللغات، فيعبر بالكم القليل المصاغ بطريقة بلاغية فريدة ما لا يمكن التعبير عنه بجمل عديدة في لغات أخرى. و مثال تقديم المفعول على الفعل قوله تعالى: ((إياك نعبد و إياك نستعين))، فتقديم الضمير المفعول به هنا أفاد التخصيص، و ذلك بخلاف لو قيل "نعبدك و نستعين بك" لأن ذلك يحتمل معه المشاركة و العطف، فالتقديم ألزم الاخصاص للمفعول به دون غيره. و كذا الأمر حين تقديم الخبر على المبتدأ، كقولنا: قائم عمرو، و عمرو قائم، فعندما قدمنا الخبر على المبتدأ خصصنا القيام لعمرو دون غيره من الناس مما يخطر لذهن

[1] – الزركشي– البرهان ٧٧٠/١.

[2] – الجرجاني– دلائل الإعجاز: ٩٦/١.

[3] – الزركشي– البرهان في علوم القرآن: ٧٧٠/١،

[4] – السابق: ٣٥/٢.

المتلقي، و أما قولنا "عمرو قائم" فيتضمن إثبات القيام له أو نفيه. و هذا النوع من التقديم هو ما توافق عليه كل من الزركشي و الجرجاني بـ" التقديم على نيَّةِ التأخير"[١] ، و هذا ينطبق على كل بقي بعد التقديم على حكمه الإعرابي الذي كان عليه قبل التقديم فالضمير في المثال الأول لم يخرج عن كونه مفعولا به، و كذلك "قائم" بقيت على حكمها و إعرابها ولا أثر للتقديم في ذلك البتة.

وظاهرة التقديم هذه، في رأي، كسرت حاجز التقعيد الذي فرضه النحاة على اللغة في بداية نشأة علم النحو مع مطلع القرن الهجري الثاني، و بهذا تكون هذه الظاهرة مستندا و حجة لمن رأى أن التقديم و التأخير ضرب من المجاز. و في هذا نجد سعة في مقاصد اللغة عما ضيقه النحاة في قواعدهم وقيدوا به اللغة بما يدعى بضيق رتابة قواعد النحو، و الرتابة في معناها اللغوي الثبات و التضييق، و رتابة القواعد هنا ثبات وتضييق للمعنى و تقييد له. فالتقديم و التأخير هاهنا تحرر من الرتابة و التقييد الذي فرضته قواعد اللغة وتجاوز لما فيه خدمة المعنى أولا و آخرا، و هذا إبداع ممن جعل منهجه التقديم و التأخير ليصل به إلى معنى لم يكن ليبلغه لولاه، و لما علا و فاق ما حوله بما حاكه و ابتغاه، و هذا تجديد للفكر الذي يتجدد بتجدد الحياة التي لا ينفع معها دوام و ثبات، فالمعنى "كثيرا ما يتفاوت ويتلون في تصوره، من لحظة إلى أخرى ومن ذهن لآخر، فهو مفهوم مراوغ ليس من السهولة تحديده، وتلمس الخيوط التي تشكله"[٢]. فالتغيير يتطلب التغيير و المرونة بما يتوافق مع متطلبات المرحلة التي تمر بها اللغة، و ذلك للمواءمة التي يحتاجها العلم و البيان من خلال ما يستجد من دراسات تكون رافدا في هذا العلم أو في هذا الباب بالتحديد، و كما أن الحياة سمتها التجدد دائما فلغة حية كلغتنا العربية لا بد لها من الانسجام مع متطلبات الحياة و أن تكون طوع كل من رام منها مقصدا. فبهذا المعنى يكون التقديم و التأخير رائدا في ميدان اللغة يعينها على مواكبة كل جديد، و يوسع من مداركها فيدرك به القاصد ما لا يدركه لو

1 – الزركشي– البرهان في علوم القرآن: ٧٩٧/١، الجرجاني– دلائل الإعجاز :١/ ٩٦.

2 – محمود الجاسم: القاعدة النحوية–تحليل ونقد، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٧، ط:١، ص: ٩٣.

التزم رتابة النحاة و قيودهم، و بهذا يكون العدول عن الرتابة هذه " مطلب دلالي بلاغي إقناعي في سياقات معينة، وبهذا يكون الالتزام برتبة النحاة أو وظيفتهم مخالفة لقاعدة أو وظيفة المعنى"[١].

ومثل هذه الأساليب من تقديم و تأخير و غيرها من أنواع العدول الأخرى تعد خادما للمعنى، مثلما "الألفاظ – بعبارة ابن جني – خدم للمعاني والمخدوم – لا شك – أشرف من الخادم"[٢]، وبعبارة الزملكاني: "التقدم في اللسان تبع للتقدم في الجنان (...) وإن الألفاظ تبع للمعاني والمعاني تتقدم باعتبارات خمسة: (العلة، الذات، الشرف، الرتبة، الزمان"[٣]. و بهذا يشكل باب التقديم و التأخير وظيفة بلاغية حجاجية تخدم المعنى خدمة عظيمة وتؤثر في المتلقي تأثيرا يستجيب معه و يحاج فيه، فالألفاظ إنما جعلت و صيغت لتخدم ما يبتغيه المتحدث و ما يريد إيصاله للمتلقي من رسالة مقصدها حسب إرادته، فغن كان يريد حجة أو إخبارا أو أمرا أو نهيا أو إلى غير ذلك من المقاصد المعتادة، ولعل ابلغها ، في اعتقادي، هي رسالة الحجة أو المحاجة في الكلام، فهي التي يطلبها و يسعى إليها الناس في كل زمان و مكان، بل و يترتب عليها أحيانا انتزاع حقوق أو فرض وجهة نظر لتصبح حجة بالغة قد أعلى منزلها البيان اللغوية أو الصيغة البلاغية المستخدمة في التقديم و التأخير.

التقديم والتأخير وفق المقياس النحوي ومداه الحجاجي:

يتضح ذلك عند الزركشي بـ "مما قدم والنية به التأخير"٤. و يتجلى ذلك في تقديم المفعول على الفاعل بالمثل القرآني الآتي: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر:٢٨)، و هذا حتمي بالأسس النحوية أن يكون كذلك، إلا إن كان لقصد الحصر و مثاله أن يتقدم المفعول،

1 – حسن شمسان– الأمثال النبوية دراسة لغوية (بتصرف): ٢٧٠–٢٧١.

2 – ابن جني– الخصائص: ٢٢٠.

3 – الزملكاني– البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن: ٢٩٠.

4 – الزركشي– البرهان: ٧٩٧/١.

و نجد ذلك في قوله تعالى: ﴿بل الله أعبد﴾ (الزمر:٦٦) ، وكتقديم الخبر على المبتدأ في قوله عز وجل : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ﴾ (الحشر:٢). والوضع الطبيعي هو "وظنوا أن حصونهم مانعتهم"، حيث اطمأنوا أن الحصون هي المانع الأول لهم و الذي لا مثيل له من خلال اطمئنانهم إليها. و في سورة مريم قول الله تعالى ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي ﴾ (مريم:٤٦). ولو جاءت الآية "أأنت راغب عن آلهتي" ؟ لم تفد الاستنكار تجاه إبراهيم. كما نجد في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (الأنبياء:٩٧) لم يقل الله تعالى "فإذا أبصار الذين كفروا شاخصة" وجاز الاستغناء عن الضمير، لأن هذا لا يفيد اختصاص الذين كفروا بالشخوص"١.

أولا: تقديم المسند إليه (الفاعل) لأجل التخصيص

في القياس الصحيح عند جمهور النحاة أن يأتي الفاعل متأخرا عن عامله، ولا يجب أن يتقدم عليه، ففي جملة "أحمد جاء" هنا لا يكون أحمد فاعلا على قياس النحاة بل يكون مبتدأ لجملة اسمية٢. وذهب الكوفيون إلى غير ذلك حيث أجازوا أن يتقدم الفاعل على فعله، و لو نظرنا لأحمد في الجملة السابقة فإنه "فاعل" لفعل عندهم٣. وكان لبعض المحدثين دور حيث ساند رأي الكوفيين في ذلك حينما قاموا بدراسة تفصيلية لجهود السابقين فيما يخص الجملة الفعلية حتى وصلوا إلى القول: "فمن الجلي أن هذا الشرط (أي تأخر الفاعل عن الفعل) نتاج موقف جمهور

[1] – الزركشي– البرهان: ١/٧٩٧–٧٩٨.

[2] – انظر: ابن االسراج– الأصول في النحو، مج:١، تحقيق: د. عبد المحسين الفتلي، مطبعة النعمان، النجف– بغداد، ١٩٧٣.، ص:٨١، الأشموني– شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، مج:٢، دار إحياء الكتب العربية، (د. ت)، ص: ٤٥، خالد عبد الله الأزهري– شرح التصريح، مج:١، دار إحياء الكتب العربية، (د. ت)، ص: ٢٧٠.

[3] – أنظر: بهاء الدين عبد الله ابن عقيل العقيلي– اشرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، مج١، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٦٢، ط:١٣ ص: ١٦١.

النحويين في الربط بين نوع الجملة وتصدر الاسم أو الفعل فيها ونحسب أننا قد انتهينا من بيان اضطراب هذا الموقف وحاجة التصنيف النحوي للجملة إلى أساس جديد لا يكون محوره النظر إلى المتقدم في الجملة وإنما تحديد نوع المسند فيها"١. كما ذهب أيضا في هذا المنحى الدكتور فاضل السامرائي حينما تطرق لآراء المعارضين منهم خاصة لتقدم الفاعل على فعله، "وهذا خلاف في الأمور الاصطلاحية، وفيما أرى كان ينبغي أن تبحث هذه المسألة على غير هذه الشاكلة، وهو أن يبحث في الخلاف المعنوي، فالأصل في الجملة التي مسندها فعل أن يتقدم الفعل، فإن تقدم المسند إليه نظر في سبب ذلك"٢. و بعد هذا العرض من الدكتور فاضل السامرائي توصل إلى نتيجة مفادها أن هناك عدة أسباب مسوغة لتقديم الفاعل على فعله، و هي نتيجة من وجهة نظري موفقة من هذا العالم في زماننا هذا، و قد قال أن هناك ثمانية أسباب أو أغراض لتقديم الفاعل: (القصر والتخصيص، والتعظيم، وتعجيل المسرة، والتعجب والغرابة، تحقيق الأمر وإزالة الشك، قصد الجنس)٣.

و تأيداً لرأي الدكتور فاضل السامرائي نجد في قول الله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة:١٧١)، والتقدير في غير كتاب الله هو "صم بكم عمي لا يعقلون"، و هنا تم نفي العقل عمن وصفهم بذلك ، كما شمل بذلك من ينطبق عليهم هذا القول لعموم الكافرين، و يتضح لنا تقديم الضمير "هم" لقصد القصر أو قصد الحصر، و يصبح نفي صفة العقل– و هو العقل الذي يراد به الفقه و ليس العقل بذاته، لأن العقل منحة من الله تعالى قد حباها الباري كلا من المؤمن و الكافر على حد سواء – و يقتصر على الكافرين فقط. و عليه فالتقديم آنف الذكر يطابق من حيث الإقناع بلاغيا في

1 – على أبو المكارم (دكتور)– الجملة الفعلية، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٧، ط:١،ص:٦٤–٦٥. وانظر أيضا: أحمد عبد الستار الجواري– نحو الفعل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٦، طبعة جديدة، ص: ٨٠، وما بعدها.

2 – فاضل السامرآي– معاني النحو: ٤٠.

3 – أنظر: السابق:٤٢.

قوله ﷻ ﴿ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (البقرة:٤)، حيث قدم الآخرة على "هم" لبيان موقف أهل الكتاب و ما في اعتقادهم من النفي و الإثبات بخصوص (الآخرة)، و اختلافهم في سبل النجاة المرتبطة بذلك من الرسالة المحمدية و عدم إيمانهم بها، و إن قولهم ليس بنابع من اليقين المستقر في القلوب عن الآخرة، حيث أن اليقين لا يتزحزح في قلب المؤمن حيث آمن بك و بما أنزل إليك، و بمن قبلك"[1].

و يتحقق من ذلك أن نفي العقل في الشاهد السابق و تقيده على الكافرين لا يقصد به العقل من حيث الوعي لدى الإنسان الذي وهبه الله تعالى إياه، بل المقصود بذلك نفي "الفقه" و هو المعرفة الحقيقية لجلاء الأمر و صورته الحقيقية التي تكون محجوبة عن الخلق إلا من فتح الله عليه بفضل منه و رضوان، ولذلك أثبت الله الضلال على الكافرين و لم ينف أن لهم عقل، لكن هذا العقل لم يصل بهم إلى الهداية بل استودعهم في وعاء الضلال، و نجد ذلك في قوله ﷻ: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ (الأعراف١٧٩).

كما نجد في قوله ﷻ ﴿ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ قد تقدم النفي على (يرجعون) بذلك نفى الرجوع قطعا، ووضح ذلك في قوله: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (البقرة:١٨). و قد ذكر الرازي في مفاتيح الغيب: ﴿ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ فيه وجوه: أحدها أنهم لا يرجعون عما تقدم ذكره وهو التمسك بالنفاق الذي لأجل تمسكهم به وصفهم الله تعالى بهذ الصفات فصار ذلك دلالة على أنهم يستمرون على نفاقهم أبداً، وثانيها أنهم لا يعودون إلى الهدى بعد أن باعوه وعن الضلالة بعد أن اشتروها، وثالثها أراد أنهم بمنزلة المتحيرين الذين بقوا خامدين في مكانهم لا يبرحون ولا يدرون أيتقدمون أم يتأخرون"[2]. و الجدير بالذكر أن الرازي قد ذكر ثلاثة أوجه: الأول أنهم استعلوا و

[1] – الزمخشري– الكشاف: ١/١٠٥.

[2] – محمد بن عمر التميمي الرازي، (فخر الدين)– مفاتيح الغيب، مج: ٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠، ط: ١، ص:٧٠.

استكبروا و بقوا على الضلال، و الثاني أنهم رفضوا العودة إلى طريق الهدى، والثالث أنهم تتجاذبهم الطرق فهم في تذبذب و حيرة. و يتبين من كلام الرازي هذا أن هذه الوجه مرتبطة بعضها ببعض ، فالأول و الثاني يوجد بينهم تراتب و ترابط، و إذا أمعنا النظر وجدنا أن كل وجه متوائمٌ مع غرض التقديم في الآية. فما بالك لو كانت الوجوه الثلاثة مترابطة فلا مانع أن تكون منسجمة مع القصد في التقديم، و نجد أن الوجه الثاني و هو رفضهم العودة إلى طريق الهدى فقد أدى التقديم إلى توافق في الوظيفة البلاغية الإقناعية، مع أن الرجوع إلى طريق الحق لن يتأتى إلا بالفقه الذي يترجم إلى نية في القلب يصدقها العمل الظاهر. ونجد في قوله تعالى: ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ .إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ (الزمر:٣٠)، وكذلك صورة "الأبكم" الذي لا يستجيب بطبيعته بسبب ما به من علة إلا في حدود ضيقة غير متاحة تؤيد هذه الصفة حال عدم الرجوع نحو قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾(النحل:٧٦).

ويبرز لنا مما سبق أن التقديم أفاد في المعنى و عمقه ، و أبرز التعنت الحقيقي و الظاهر لأن الذي يقرأ القرآن ليس كمن شاهد هذا الفعل أمام عينه وهو رفض أهل الضلال هذه الحقائق ، لذا استوجب التقديم أن يكون مبرزا في هذه الصورة لمن يقرأ القرآن و لو جاء بعد وقوع هذه الأحداث بمئات السنين لا بل بآلاف السنين. فالسامع ليس كالرائي و لكن حين يتكلم الخالق سبحانه وتعالى فإن الواقع يكون غير المعتاد، فقد أوصل القرآن الصورة بجلاء و وضوح منقطع النظير مستخدما البيان البلاغي في التقديم.

و أما التقديم الذي جاء في قوله تعالى: ﴿ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِين﴾ فإن الأصل أن يتقدم الفعل في الجملة التي مسندها فعل، فالأصل أن يقال (حضر أحمد) و (قدم زيد) ، فإن قلنا (أحمد حضر) و(زيد قدم) نظر في سبب التقديم.

و يتضح من ذلك أن الجملة الفعلية "التي يكون المسند فيها فعلا، سواء تقدم هذا الفعل أو تأخر"١. المثال القرآني السابق ينتمي إلى الجملة التي مسندها فعل، (أي الجملة فعلية)، وكان الأصل في غير القرآن أن يكون التقدير: "لا يهدي الله القوم الظالمين" لكن التقديم هنا له معنيان بلاغيان هما التعظيم و إن كنا لا ننفي غرض التخصيص أيضا، فقدم لفظ الجلالة لتعظيمه، كما أن الهداية تنطلق من التدبر العقلي و الإمعان في الاختيار بين الطريق الصحيح و الطريق الذي يكتنفه الضلال. و لا يمكن أن تحصل الهداية بغير هذا التفكير و الإعمال للعقل الذي بدوره يفضي إلى صوت الحق و الحكمة بعيدا عن الأهواء والميل والعواطف. والذي يريد الاهتداء بغير إعمال العقل فإن ذلك بعيد كل البعد، و الأصل أن التكاليف تبنى على العقل السليم، فالسقيم عقلا لا تكليف عليه البتة. و يتوافق ذلك مع ما سبق عندما تناولنا التقديم فيما سبق من أمثلة، حيث تم نفي العقل على الكافرين، و المقصود به العقل الذاتي الذي به يستدل على طريق الحق، ولأن الهداية مرتبطة بتأمل عقلاني سديد في كتاب الله و السنة النبوية فإن التقديم هنا قد أتم تمام الفائدة وأدى أحسن الأداء في أحسن صورة فكان التخصيص ذا دلالة واضحة جدا يتبعه مفهوم "التعظيم" لله سبحانه وتعالى.

وحين نمعن النظر في قول الله ﷻ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ (فاطر:٢٧)، وننظر في سياق الآية نجد أن الله تعالى ألمح في ذلك للحق والباطل، حيث شبه "الماء" هنا بتشبيه تمثيلي ثم ذكر المشبه به (الماء) و هو الذي يحصل به المنفعة و له البقاء و الأثر و لا يستطيع أن يفعل ذلك أيا من كان سوى الله عز و جل، وكان ذلك لغرض التخصيص و إن أدخل التعظيم فلا بأس بذلك، لأن التعظيم يتضح بالتقديم كما هو قدرة الباري عز و جل على إحداث النفع و الابقاء الدائم في قدرة لا تستطيعها النفس البشرية و لربما تساءلت هذه النفس عن هذه القدرة على إنزال الماء و كان ذلك سببا في هدايتها للطريق القويم . لقد وردت دلالات التقديم في القرآن الكريم: "قدم (من السماء) على المفعول به (ماء) لبيان عجيب القدرة وإلفات الذهن الى

[1] – على أبو المكارم – الجملة الفعلية: ٣٧.

حكمة الصنعة ليتمكن في النفس حسن التفكير وعظيم التبصر بأحوال هذا الماء كيف أنشئ في السماء ... كما فيه ذكر بيان النعمة حيث النظر في هذه القدرة التي أنزلت الماء من مكان لا يستطيع احد أن ينزله منه مهما أوتي من قدرة، فيتولد في النفس شعور تقابلي بمدى العجز والضعف الذي يمليه أيضا المد المتصل الذي في كلمة السماء والذي يضيف بعدا زمانيا آخر إضافة الى البعد النفسي"١.

كما ذهب الآلوسي مذهبا آخر وهو التطلع إلى المتأخر من أجل التمكن الذهني قال: "وتأخير المفعول الصريح عنه ليظمأ الذهن إليه فيتمكن أتم تمكن عند وروده عليه"٢.

و هذا التقديم يسري على قوله ﷻ ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:٢٦٤) فالتقديم مطابق لما ورد في المثال السابق؛ لكنه استبدل لفظ "الظالمين" بالكافرين، و تشابه السياقين بسبب تكرار القرآن للفظ "ظلم" وربطها مع مفهوم الشرك، ومن ذلك قوله ﷻ ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان:١٣) وبناء على ذلك فالظلم اذا جاء بدلالته فهو من الكفرِ.

وكذلك ما جاء في قوله ﷻ ﴿ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (البقرة:٢٦١) فالمضاعفة تقوم على بذل عمل، والعمل نتيجة العلم، و لا شك أن البشر لهم اختيار نسبي فيما اختاره الله لهم، فجعل المشيئة هنا تابعة لهم، فهم إن أرادوا الهداية هداهم الله و ضاعف لهم أجر عملهم، و يؤكده قوله ﷻ ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ (محمد:١٧). فالمضاعفة قائمة ومتصلة ومترتبة بعضها على بعض، و هي خاصة به وحده ﷻ، فجاء التقديم للاختصاص من جهة ولعظمة الله صاحب الاختصاصِ وصاحب العطاء من جهة أخرى ؛ لهذا جاء تقديم لفظ الجلالة في قوله ﷻ ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (البقرة:٢٦٥) فعلم الله لا يحيط به أحد وهو شامل لكل شيء، يشمل الظاهر والخفي فهما سواء عنده، قال ﷻ ﴿وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ (طه:٧).

---

[1] – منير محمد المسيري – دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم، دراسة تحليلية، مكتبة وهبة، القاهرة، ٢٠٠٥، ط:١ص: ٤٥٤-٤٥٥.

[2] – الآلوسي– روح المعاني: ١٠٥/١٤.

ثانيا: تقديم المفعول به:

الأصل في الصنعة النحوية أن يتقدم الفاعل على المفعول في كل الأحول حتى يؤمن اللبس كما لو قيل(ضرب عيسى موسى)، ففي مثل هذا المثال وغيره لابد أن يلتبس على المتلقي من قام بالفعل و من وقع عليه الفعل منهما، فكان الأولى الالتزام بالأصل من الصنعة النحوية و هي أن يتقدم الفاعل على المفعول. أما إن استدعى الأمر لتغيير الصورة المتعاهد عليها فقدم المفعول على الفاعل كان ذلك لغرض يريده القائل أو الكاتب، فالتزام الصورة و التسلسل المنطقي لأجزاء الجملة إنما يراد لمن هو خالي الذهن، و التغيير في هذه الصورة و عدم التزام الأصل إنما يحصل لغرض"١. و لسنا هنا بصدد أغراض وجوب تقدم الفاعل كأمن اللبس، أو غموض الإعراب مع عدم وجود قرينة لفظية أو معنوية، ولا وجوب تقديم المفعول على الفاعل بأي حال من الأحوال، فهذه ليست محط اهتمامنا هنا و لا مرادنا في بحثنا. ما يعنينا و نرمي له في التقديم هو الجواز الذي ليس فيها ثمة محظور يؤدي إلى اللبس، فالتقديم يحصل هنا لغرض بلاغي يبتغيه القائل ويقصد من ورائه محاجة المتلقي و إقناعه بأسلوب خارج عن المألوف لم يعهده، و قد جعل النحاة مدار الأمر في ذلك هو الاهتمام والعناية بالمتقدم٢، "وإن كان موطن الاهتمام مختلفا بحسب المقام"٣.

إن التطرق لموضوع التقديم هذا و البحث فيه لم يلق جهدا واسعا و لم يتناول بدراسات مستفيضة تفيه حقه و تزيل اللثام عنه، فكان مقننا محدودا، ومثاله ما جاء في قوله ﷻ: ﴿ كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ (يونس:٢٤) فشبه الجملة ﴿كَمَاءٍ﴾ في محل نصب مفعول به مجرور لفظا منصوب محلا، و هذا التقديم لم يرد به التخصيص كما أريد في قوله ﷻ ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ

---

[1] – فاضل السامرآي– معاني النحو: ٤٧/٢.

[2] – أنظر: عمر بن عثمان بن قنبري (سيبويه)– الكتاب، مج:١، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣، ط: ١، ص:١٤–١٥.

[3] – فاضل السامرآي– معاني النحو: ٤٨/٢.

مَاءً﴾ (البقرة:٢٢) فقد جاء المفعول به هنا بترتيبه المعتاد في الجملة الفعلِية، إلا أنه قدم شبه الجملة على المفعول به تخصيصا لها. و من هنا فإن (الماء) الوارد في قوله ﷻ: ﴿ كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ (يونس:٢٤) يسمو قيمة في المعنى على (الماء) الوارد في الآية الأخرى، و بمعنى آخر إن تقديم المفعول في المثال الأول كان لِأغراض بلاغيةِ إقناعية لا يتوصل إليها دون هذا التقديم، و تتمثل فى أن الماء رمز لأصل للحياة و له من الأهمية ما ليس لغيره، و أما الماء في المثال الآخر فهو لا يتعدى كونه مادة زائلة لها من الأهمية ما لغيرها و ارتباطها بكائنات أخرى كالنبات و الإنسان و الحيوان التي تمثل فكرة الزوال فناسب بذلك تقديم المفعول شِبه الجملة (من السماءِ) المعنى المراد أي الاختلاط بالنبات الذي يتبعه زوال وفناء ولعل هذا النوع من التقديم أقرب إلى القياس الدلالي منه إلى القياس النحوي.

ويتبين تقديم المفعول أيضا في قوله ﷻ :﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ (الحديد:٢٠) فالتقديم هنا جاء لتخصيصِ الكفار بالإعجاب بالنبات الذي نسوا معه أن مآل هذا النبات إلى زوال، و هو دلالة على نسيانهم لقضية البعث، وهذا مثل كل من ساقه إعجابه لمثل هذا فنسي أصله ومآله .

ومثل هذا التقديم ينسجم مع المعنى المراد من سياق الكلام هنا فمن تغره حياة النبات الفاني وينسى معها حياة الثبات الأبدي هو (الكافر) لغويا، ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ (الكهف:٣٦). فهذا هو الكافر الزارع، والزارع الكافر. و في تفسير الآية السابقة ذكر الرازي في مفاتيح الغيب: "وقوله أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ فيه قولان: الأول قال ابن مسعود: المراد من الكفار الزراع. قال الأزهري: والعرب تقول للزارع كافر لأنه يكفر البذر الذي يبذره بتراب الأرض وإذا أعجب الزراع نباته مع علمهم به فهو في غاية الحسن، الثاني: أن المراد بالكفار في هذه الآية الكفار بالله وهم أشد إعجاباً بزينة الدنيا وحرثها من المؤمنين لأنهم لا يرون سعادة سوى سعادة الدنيا"[1]. ولعل الترتيب في قوله ﷻ ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾

[1] - الرازي- مفاتيح الغيب: ٢٠٤/٢٩)

(الفتح:٢٩) جاء على الأصل ، فالزراع هنا هم المؤمنون، والسياق هنا ليس سياق زوال، بل سياق أعطي فيه الزرع صورة تتجسد فيها معاني القوة والعزة والمنعة، فلم يخص الزراع بالإعجاب بل كان المقصد إغاظة الكفار، فالغرض لم يأت بهدف الإعجاب للزراع، بل جعل الزراع أنفسهم محل إعجاب لإغاظة الكفار، والضمير (هم) يعزز ذلك المعنى و يوضحه، ولو كان الزرع هو مقصد الإعجاب لذكرعوضا عنه الضمير (به) ليطابق الزرع، ويزيد الأمر وضوحا و بلاغة و قوة في المعنى تقديم شبه الجملة (بهم) على المفعول به (الكفار) ليقصر الإغاظة على الزراع المؤمنين.

وتتضح هذه الفكرة و تزداد نضوجا إذا ما تأملنا قوله تعالى: (عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ) [آل عمران:١١٩] حيث إننا نجد هنا التقديم نفسه لشبه الجملة (عليكم) على المفعول به (الأنامل) و هذا التقديم حصر الغيظ و خصصه بالمؤمنين، فكلا المثالين يشيران إلى بلاغة التقديم و المعاني الخفية التي انطوى عليها و التي كمنت بين السطور فلا يراها إلا من أوتي حظا عظيما من الفهم و قوة بلاغية فريدة تفردت بها هذه اللغة العظيمة عن سواها من اللغات.

ثالثا: تقديم المتعلق (شبه الجملة) للتخصيص:

إن تقديم شبه الجملة (الجار والمجرور والظرف) يأتي لأغراض بلاغية ونحوية عديدة، غير أن أجل تلك الأغراض هو الاختصاص والحصر. يقول ﷻ ﴿ لَهُ المُلكُ ولَهُ الحَمْدُ﴾ (التغابن:١) "قدم الظرفان ليدل بتقديمهما على معنى اختصاص الملك والحمد بالله ﷻ لا غيره"[1]. و يشير صاحب الطراز إلى تقديم شبه الجملة فيجعله على وجهين: "أحدهما أن يكون واردا دلالة على الاختصاص، وهذا كقوله ﷻ ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُور﴾ (الشورى:٥٣). ... وثانيها: أن يكون تقديمه من أجل مراعاة المشاكلة لرؤوس الآي في السجع، وهذا كقوله ﷻ ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[2](القيامة٢٢-٢٣).

---

[1] – المفصل: ٧٢/١.

[2] – يحي بن حمزة العلولي– الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق القرآن، مج: ٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٠، ط: ١، ص: ٧٠-٧١.

و إلى مثل هذا ذهب صاحب البرهان في قوله: "لا تختص إفادة الحصر بتقديم المبتدأ، بل هو كذلك إذا تقدم الفاعل، أو المفعول، أو الجار والمجرور المتعلقات بالفعل، ومن أمثلته قوله ﷻ ﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾[1] (الملك:٢٩). و جاء في الإتقان للسيوطي: "كاد أهل البيان يطبقون على أن تقديم المعمول يفيد الحصر سواء كان مفعولا أو ظرفا أو مجرورا"[2].

وعوداً إلى قوله ﷻ ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ (البقرة:٢٢) ، والتقدير في غير القرآن "أنزل ماءً من السماء"، لكن التقديم في كلامه تعالى أعلى و أجل فقد حصر و قصر إنزال الماء على السماء، أو خصص السماء بمكان إنزال الماء، وهذا التخصيص –أراه– يتوافق مع وقوع الماء مشبه به للحق، لأن الحق إنما يكون نزوله من السماء كما الماء، و اتضح معنا ذلك سابقا في تقديم المفعول به.

وأما قوله ﷻ ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ (الحديد:٢٠) فهذا أيضا من باب التقديم الجائز؛ لأن النكرة هنا وقعت مخصوصة بوصف، أي أنها جاءت موصوفة، وهذا شرط من شروط جواز وقوع المبتدأ نكرة، وعليه لو قيل "وعذاب شديد في الآخرة" لجاز من حيث الصنعة النحوية، لكن التقديم هنا جار لغرض بلاغي لا يكون إلا به و هو أن هذا النوع من العذاب الموصوف بالشدة خاصية من خواص يوم القيامة، فتقديم شبه الجملة ﴿وَفِي الآخِرَةِ﴾ جاء مناسبا لسياق الآية لحصر هذا النوع من العذاب في يوم القيامة دون سواه كالدنيا مثلا.

و لنتناول مثالا آخر والأمثلة كثيرة في ذلك. يقول الله ﷻ ﴿ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾(إبراهيم:١٨) فخصصت وظيفة الريح الشديدة بالرماد، و كذا في قوله ﷻ ﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ (إبراهيم:١٨) ، إلا أن الدكتور فاضل السامرائي يقارن بين الآيتين

[1] – الزركشي– البرهان: ٤١٤/٢.

[2] – السيوطي– الإتقان: ٥١/٢.

آية إبراهيم السابقة، وآية البقرة التي جاءت على الأصل وذلك قوله ﷻ ﴿ لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة:٢٦٤). "وذلك أن آية البقرة في سياق الإنفاق والصدقة، والمنفق معطٍ وليس كاسبا، ولذلك أخر الكسب، وأما آية إبراهيم فهي في سياق العمل، والعامل كاسب فقدم الكسب"[1] و التقديم هنا ينفي نفيا قاطعا الاستفادة من العمل، إذا لا يستفيدون منه شيئا، وهذا لا يقتضي وقوع الظلم، مصداقا لقوله ﷻ ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (الأنبياء:٤٧).

و أما في قوله تعالى ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ (البقرة:٢٢) فيتبادر إلى الذهن السؤال التالي: لم خص الماء هنا بمكان النزول على عكس ما ورد في آيات أخر حيث قدم فيها لفظ الماء على مكان النزول "السماء"؟

الجواب على هذا هو أن الله ﷻ نسبه أولا إلى نفسه مباشرة، و أنه ثانيا لم يشر إلى الاختلاط بالكائنات الأخرى كما في بقية الأمثلة، بل سلكه ينابيعا وهذا يدل على إعطاء الماء هنا صفة البقاء النافع التي وصف بها ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ (الرعد:١٧) و الماء الذي سلكه الله ينابيعا كذلك قد تحلى بالصفة نفسها، كما أخذ صفة الإخراج وهي صفات قريبة من صفات (الحق) فكان الماء هنا أقرب إلى صفة الحياة والنقاء والبقاء، منها إلى الزوال والله أعلم. و لو تأملنا حرف العطف (ثم) الدال على التراخي، ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا ﴾ (الزمر:٢١) نراه يشير إلى صفة المكوث أو الثبات[2] .

إليك أيضا قوله ﷻ ﴿ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا ﴾(النحل:٧٥) قدم شبه الجملة (منا) على المفعول لما كان الوصف للرزق حسنا، والتقدير في غير القرآن الكريم "رزقناه رزقا منا"، كما أن في هذا إشارة خفية إلى أن كل رزق حسن لا يخالطه حرام أو شبهة، وهذا الرزق الحلال الحسن

[1] – فاضل السامرائي– التعبير القرآني، (مذكور): ص: ٧١.

[2] – ينظر: الزمخشري– الكشاف: ١٨٣/٣.

من حظ و نصيب المؤمن الحسن، ولهذا كان أيضا تقديم شبه الجملة (منه) على الحال في قوله ﷻ ﴿ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرّاً ﴾. فالرزق الحسن هو ما ينسب إلى الله، ولا تقبل النفقة إلا منه، (أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وَقَالَ ﴿يا يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ ». ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِىَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ)[1]

ناهيك عن أنه يجوز أن يجهر الإنسان بالنفقة، ولو قدم الحال (سرا) على شبه الجملة لاختص الإنفاق بما هو سر، و النفقة تجوز علانية، لهذا عطف (جهرا) على سرا إذنا بالجواز لأن في ذلك حثا على الصدقة. جاء في صحيح البخاري: "(سرا) يخفون صدقاتهم ويعطونها للفقير دون أن يراهم أحد. (علانية) على مرأى من الناس ليقتدوا بهم"[2].

كما أنه من المعلوم بالضرورة أن قدرة الله لا تحدها حدود و لا تضيقها حواجز، و عليه جاء التقديم في قوله عز و جل ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة:٢٠) فكان ذكر ذلك في سياق البقاء (فيمكث في الأرض) لا سياق الزوال وكأنه أخذ شيئا من قدسية (المشبه).

التقديم والتأخير وفق المقياس الدلالي ومداه الحجاجي:

إن هذا النوع من التقديم و التأخير اصطلح عليه الزركشي بـ"ما قُدّم والمعنى عليه" وقد اختلف العلماء في تصنيفها و تبويبها فذكر الزركشي لها خمسة وعشرين صنفا[3]؛ حيث يقول: "ومقتضياته

1 – صحيح مسلم: ٣/٨٥).

2 – صحيح البخاري:٢/٥١٥.

3 – وهي السبق، باالذات، بالعلة والسببية، بالرتبة، بالداعية، التعظيم، الشرف، الغلبة والكثرة، سبق ما يقتضي تقديمه، مراعاة اشتقاق اللفظ، للحث عليه خوفا من التاهون به، لتحقق ما بعده واستغنائه عنه في تصوره، الاهتمام عند المخاطب، للتنبيه على أنه مطلق لا مقيد، للتنبيه علىه أن السبب مرتب، التنقل، الترقي، مراعاة الإفراد،

كثيرة، قد يسر الله منها خمسة وعشرين"[١] ، و أما السيوطي فقد عدها في الإتقان عشرة دوافع، ولخصها الزملكاني بخمسة[٢].

ينقسم التقديم و التأخير من حيث المقياس الدلالي إلى قسمين: الرتبة والشرف. نلمس القسم الأول (الرتبة) في تقديم الماء على السيل والزبد، وذلك في قوله ﷻ ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ (الرعد:١٧). فذكر الماء أولا، ثم السيل والزبد، و ذلك لأن السيل نتاج طبيعي عن الماء الهاطل من السماء، أي نتاج زائد عن حاجة الأرض إليه، والزبد كذلك نتاج طبيعي ومنطقي عن السيل. أما القسم الآخر من التقديم (الشرف) يظهر جليا في قوله ﷻ ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ﴾. فقدم ذكر الحلية على المتاع؛ و كلاهما يمثل (طرف المشبه به) لـ (الحق) وتقديمهما على الزبد هنا من باب التشريف والتعظيم ، وتأخر الزبد لا تقتضيه الرتبة هنا، فتأخر ذكره هنا تحقيرا له، و للسبب و الغرض ذاته قدم (الحق) وأخر (الباطل) في قول ﷻ ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ﴾، فتقدم الحق إنما للتشريف و التعظيم، و تأخير الباطل للتحقير و الإذلال.

والسؤال الذي يتبادر للذهن هنا: لم تقدم ذكر (الزبد) على (الماء) في قوله ﷻ ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ ؟ يجيب عن هذا أبو حيان بقوله : "فبدأ بالزبد إذ هو المتأخر في قوله ﷻ ﴿ زَبَدًا رَّابِيًا ﴾ وفي قوله ﴿ زَبَدٌ مِّثْلُهُ﴾ ولكون الباطل كناية عنه وصف متأخر، وهي طريقة فصيحة يبدأ في التقسيم بما ذكر آخرا[٣] كقوله

التحذير منه والتنفير عنه، التخويف منه، التعجب من شأنه، كونه أدل على القدرة، قصد الترتيب، خفة اللفظ، رعاية الفواصل.

[1] – نظر: (الزركشي– البرهان في علوم القرآن:١/٧٧٤.

[2] –(العلة، الذات، الشرف، الرتبة، الزمان) (الزملكان– البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، ص:٢٩٠.

[3] – أنظر: محمد جمال الدين القاسمي– محاسن التأويل، مج:٦، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ١٩٥٤، ص:٢٧٧.

ﷻ ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ (آل عمران:١٠٦). والبدء بالسابق فصيح مثل قوله ﷻ ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ (هود:١٠٥). وكأنه والله أعلم يبدأ في التفصيل بالأهم في الذكر"١. و مثل هذا الاهتمام بالرتبة أوضحه البقاعي بقوله: "ولما نبه بهذا الفصل على علو رتبة هذا المثل، شرع في شرحه فقال مبتدئا بما هو الأهم في هذا المقام وهو إبطال الذي أضلهم"٢.

ذهب علماء أخرون إلى ذكر نوع ثالث من التقديم، وهو ما اصطلحوا عليه بالسبب أو العلة، وتمثل في قوله ﷻ ﴿ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ ﴾ (يونس:٢٤)، فجاء ذكر حياة نبات الأرض متقدما على الناس والأنعام من جهة،و كذلك قدم ذكر الناس على الأنعام من جهة أخرى، و قد ذكر مثل هذا التقديم في سياق آخر وذلك في قوله ﷻ ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (48) لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ (الفرقان:٤٩). يقول ابن الأثير: "قدم حياة الأرض وإسقاء الأنعام على إسقاء الناس، وإن كانوا أشرف محلا، لأن حياة الأرض هي سبب لحياة الأنعام والناس، فلما كانت بهذه المثابة جعلت مقدمة في الذكر على الناس، لأن حياة الناس بحياة أرضهم وأنعامهم فقدم سقي ما هو سبب نمائهم ومعاشهم على سقيهم"٣. "وفي الآية تقديم آخر وهو تقديم حياة الأرض على حياة الأنعام وعلى هذا النحو تكون لنا سلسلة عليّة بعضها آخذ بحجز بعض، صنعها لنا التقديم والتأخير في الكلام لغاية الإقناع بمحتواه وبالقضايا التي يعرضها. وتبدو هذه السلسلة العليّة على الشكل التالي: حياة الأنعام سبب حياة الناس فحياتهم رهينة حياة أنعامهم التي هي رهينة حياة الأرض التي هي رهينة نزول الغيث، فتغدو الآية محل الدرس ذات مستويين دلاليين اثنين: الأول صريح منطوق. وغايته الاستدلال

[1] – أبو حيان – البحر المحيط: ٥ /٣٥٣.

[2] – إبراهيم بن عمر البقاعي– نظم الدرر في تناسب الآي والسور، مج: ٤، دار الكتب، بيروت، ١٩٩٥، ط: ١، ص:١٦١.

[3] – ابن الأثير – المثل السائر: ٢/٤٣.

على وجود الخالق ووحدانيته والثاني ضمني يسند بواسطة بنائه المنطقي الصارم المستمد من نظام التقديم والتأخير في الآية، متانة الاستدلال المعروض في المستوى الصريح المنطوق"١.

ونرى كذلك التقديم الذي غرضه السبب و العلة في تقديم اللعب على اللهو، والأموال على الأولاد، والعذاب الشديد على المغفرة والرضوان في قوله ﷻ ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ۖ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ﴾ (الحديد:٢٠). أما اللهو واللعب، فإن الأول: ضد الجد، والآخر: كل ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه، و منه الهوى والطرب واللذات، والغفلة والانصراف عن الخير٢. وعليه فاللعب "عمل لا يهدف إلى غاية أو منفعة، وليس فيه حكمة، وهو مجلبة للذة وراحة البال؛ ولذلك كان في أكثره يطلق على أعمال الصبيان، فشبه بذلك عمل الكبار إذا خلا من المقصد والغاية والحكمة وكان لمجرد اجتلاب اللذة"٣. "والتعبير عن أعمال الكفار باللعب تشبيه لها بأعمال الصبيان، وفيه رمز لحقارتها حيث لم يترتب عليها مقصد ولا منفعة؛ ولهذا قدم اللعب على اللهو"٤. "والفارق بين الكلمتين في اللغة هو أن اللعب فِعْل، بينما اللهو انصراف وانشغال، وقد لا يكون فعلا، نحو الغفلة، فهي من أعمال القلوب"٥.

---

[1] – عبد الله صوله– الحجاج في القرآن: ٤٤٨.

[2] – أنظر: ابن فارس– مقاييس اللغة، الراغب الأصفهاني– المفردات، تحقيق: محمد خليل عيتاني، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠١، ط: ٣، ص: ٤٥٨– ٤٥٩، ابن منظور– اللسان (ل ع ب / ل ه ث).

[3] – أبو حيان– البحر المحيط: ١٠٨/٤، ابن عاشور – التحرير والتنوير: ١٩٣/١.

[4] – عبد العظيم المطعني (دكتور)– خصائص التعبير القرآني: ١٩٩/٢–٢٠٠.

[5] – محمد داوود– معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم: ٣٦٩.

ونخلص مما سبق كله أن تقديم اللعب على اللهو[1] عائد إلى السببية أو العلة، فاللهو إنما هو نتيجة منطقية للعب.

أما فيما يخص تقديم الأموال على الأولاد، فلصاحب الطراز رأي و هو قوله: "إنما قدم ذكر الأموال لأنه في معرض ذكر الافتتان، ولا شك أن الافتتان بالمال أدخل من الافتتان بالأولاد لما فيه من تعجيل اللذة والوصول إلى كل مسرة والتمكن من البسطة والقوة بخلاف آية القناطير فإنه إنما قدم البنين فيها لما ذكرها في معرض الشهوة وتمكين المحبة"[2]. بهذا يكون التقديم أكثر ملائمة للسياق، حيث أطلق عليه صاحب الطراز (سياق الافتتان)، و قياسا على ما سبق نجد تقديم العذاب الشديد على المغفرة والرضوان في قوله ﷻ ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ﴾ يدخل في هذا النوع نفسه، فإن الله هدد و توعد لمن فتنته الدنيا بالعذاب وتوعدهم به لكي يكون ذلك رادعا لهم أو قبسا يضيء لهم الظلام و يدلهم على طريق الحق و يبعدهم عن الضلال؛ و اتضح ذلك في ختام الآيات حيث قال الله تعالى ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾.

و تقديم الصم على البكم في قوله تعالى: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ جاء بترتيب بلاغي له دلالته التي تناسب السياق القرآني، "إذ إن هذا الترتيب –بعبارة المسيري– يتوافق مع حال إعراضهم وعدم انتفاعهم بسماع الوحي فصاروا مثل الأصم، ثم لم يتكلموا بالإيمان ويشهدوا بالحق فترتب على ذلك عمايتهم في طريق الضلال"[3].

[1] – اجتمع اللعب واللهو في ستة مواضع تقد اللعب في أربعة منها انظر (سورة الأنعام:٣١–٧٠، محمد:٣٦، والحديد:٢٠. أما الآيات التي تقدم فيها اللهو (الأعراف:٥١، العنكبوت: ٦٤.

[2] – يحي بن حمزة العلوي– الطراز : ٢٣٣.

[3] – منير المسيري– دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم: ١٧٨.

يقول الرازي في مفاتيح الغيب: "اعلم أنه لما كان من المعلوم من حالهم أنهم كانوا يسمعون وينطقون ويبصرون امتنع حمل ذلك على الحقيقة فلم يبق الا تشبيه حالهم لشدة تمسكهم بالعناد وإعراضهم عما يطرق سمعهم من القرآن وما يظهره الرسول صلى الله عليه وسلم من الأدلة بمن هو أصم في الحقيقة فلا يسمع، وإذا لم يسمع لم يتمكن من الجواب فذلك جعل بمنزلة الأبكم، وإذا لم ينتفع بالأدلة ولم يبصر طريق الرشد فهو بمنزلة الأعمى"[1]. "أو الترتيب على وفق حال الممثل له لأنه يسمع أولا دعوة الحق ثم يجيب ويعترف ثم يتأمل ويتبصر"[2].

و إذا تأملنا ذكر هذه الحواس في معرض السلب المتعلق بالكافرين من الجن والإنس حيث تم تقديم البصر على السمع، قال ﷻ ﴿ وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ (الأعراف:١٧٩). وقد ذكر البقاعي تفسيرا منطقيا رائعا لهذا فقال: "إن تقديم البصر هنا للعموم لأنه ينتفع به الصغير الذي لا يفهم القول وكذا كل من في حكمه"[3].

وفي قوله عز وجل ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٦١) نرى تقدم كلمة "واسع" على كلمة "عليم" أو السعة على العلم، وذلك في معرض الحديث على مضاعفة الأعمال في النفقات. فطلب العلم يلزمه سعة في الرزق، وسعة في الحلم و الصبر، كما أن السعة في الرزق وفي كل شيء لا فائدة منها و لامنفعة حقيقة إذا لم يزينها العلم، وهو ما يلحظ من قوله ﷻ ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ﴾ (العنكبوت:٦٢) حيث يجود الله بالرزق لمن قدم الأسباب في طلب الرزق، و الضمير في الفعل (يشاء) هنا يعود على الاسم الموصول (من)، ويجوز عوده إلى لفظ الجلالة، بمعنى أن الله بمشيئته سيوسع و يبسط الرزق لمن يسعى ويتحرى الأسباب الطبيعية و

[1] – الرازي– مفاتيح الغيب: ٨١/١.

[2] – الآلوسي– روح المعاني: ٣٥/١.

[3] –البقاعي– نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ١٥٩/٣.

العملية، و قد يكون هناك رزق لمن تراخى بالأسباب و ذلك لأن المشيئة تختص بالباري عز وجل و لا تختص بغيره، فهو يعطي عطاء وافرا لمن أخذ بالأسباب و كذلك لمن تراخى من خلال نظرة الإنسان، إلا أن نظرة الإنسان عادة ما تكون قاصرة، فقد يكون هناك سبب خفي لا يلمه إلا الله قد أخذ به ذلك المتراخي ، و بهذا جاز له العطاء وفق مشيئة الله .

وقد ذكر القرآن طالوت و تطرق إلى إعطائه الملك فكان هذا العطاء عطاء الواسع الموسع و هو الله جل و علا تبع هذه السعة الغنى، فكانت هذه السعة هي الطريق إلى العلم و الرفعة اللتي اختص بها الله طالوت عن غيره من أهل زمانه، و لهذا اعتضر عليه من زعم أنه أحق بالملك منه، لذلك كان الجواب من الله تعالى : ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ (البقرة:٢٤٧) قال الآلوسي: "وفي تقديم البسطة في العلم على البسطة في الجسم إيماء الى أن الفضائل النفسانية أعلى وأشرف من الفضائل الجسمانية بل يكاد لا يكون بينهما نسبة، وفي اختيار واسع عليم في الاخبار عنه تعالى هنا حسن المناسبة لبسطة الجسم وكثرة العلم"[1].

و نخلص من هذا البحث بالنتائج التالية:

١. **إن التقديم و التأخير في القرآن الكريم جاء بما اقتضاه الله من أمر، فقد ورد في بعض الآيات أن التقديم أريد به التعظيم لله، لأن الفعل المراد به إنما جاء مشيرا لله.**
٢. **جاءت ظاهرة التقديم و التأخير في بعض الأحيان مراعاة للمشاكلة في رؤوس الآيات، فأعطى جرسا موسيقيا يلفت انتباه السامع، و يعجز عنه أهل البلاغة و اللغة و الفصاحة و البيان.**
٣. **جاء التقديم أيضا للتخصيص لما له أهمية في الذكر كتقديم الخبر على المبتدأ و المفعول به على الفاعل.**

[1] – الآلوسي– روح المعاني: ١٦٧/١.

٤. **أفاد التقديم و التأخير بيان ما للمذكور من شرف و رفعة و غلبة و كثرة و علو بالرتبة مما يقتضي تقديمه**

٥. **ورد التقديم و التأخير أيضا للتخويف من المذكور و التعجب من شأنه و التشويق إليه**

قائمة المصادر و المراجع

١. إبراهيم بن عمر البقاعي- نظم الدرر في تناسب الآي والسور، مج: ٤، دار الكتب، بيروت، ١٩٩٥، ط: ١

٢. أحمد بن فارِس بن زكَرِيّا (أبي الحسين)، مقاييس الغة، تحقيق: عبد السَّلام محمد هَارُون، اتحاد الكتاب العرب، ١٤٢٣/ ٢٠٠٢.

٣. بهاء الدين عبد الله ابن عقيل العقيلي- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، مج١، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٦٢، ط:١٣

٤. جلال الدين بن عبد الرحمن السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، دار الفكر للطباعة والنشر، (د،ت).

٥. حسن على محمد ناجي شمسان، الأمثال النبوي دراسة لغوية، رسالة دكتوراه (لم تنشر)، جامعة: عين شمس، ٢٠١٠.

٦. اعبد العظيم إبراهيم محمد المطعني- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية،مكتبة وهبة،١٩٩٢،ط١

٧. عبد القاهر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجاني (أبو بكر)، دلائل الإعجاز، تحقيق : د.محمد التنجي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٥، ط: ١.

٨. عبد الله صوله، (دكتور)- الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته، من خلال مصنف الحجاج- البلاغة الجديدة ضمن حمادي صمود، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية، كلية الآداب، منوبة، تونس، ١٩٩٨.

٩. عثمان بن جني (أبو الفتح)، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتب، القاهرة، ١٩٥٦م
١٠. عمر بن عثمان بن قنبري (سيبويه)- الكتاب، مج:١، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣، ط: ١.
١١. على أبو المكارم (دكتور)- الجملة الفعلية، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٧، ط:١،
١٢. فاضل صالح السامرائي، التعبير القرآني، دار عمار، ١٩٩٨، ط: ١.
١٣. فاضل صالح السامرائي- معاني النحو، مج: ٢، دار الفكر، ٢٠٠٢، ط: ٢.
١٤. كمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم الزملكاني- البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، تحقيق: د. خديجة الحديثي ود. أحمد مطلوب، مطبعة العاني بغداد،١٩٧٤م ، ط١
١٥. محمد جمال الدين القاسمي- محاسن التأويل، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ١٩٥٤.
١٦. محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، الجامع الصحيح المختصر، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، تعليق د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير ، اليمامة - بيروت، ١٤٠٧ - ١٩٨٧، ط:٣.
١٧. محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي (فخر الدين)، مفاتيح الغيب، دار الكتب العلمية، بيروت- ١٤٢١- ٢٠٠٠، ط: ١.
١٨. محمد بن يوسف (الشهير بأبي حيان الأندلسي)، تفسير البحر المحيط، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود- الشيخ علي محمد معوض، ود.زكريا عبد المجيد النوقي، د.أحمد النجولي الجمل، دار الكتب العلمية، لبنان- بيروت، ١٤٢٢ ٢٠٠١، ط: ١.
١٩. محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (بدر الدين)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق : محمد ابو الفضل إبراهيم ، دار المعرفة، بيروت -لبنان، /١٩٥٧م، ط١.

٢٠. محمد بن سهل النحوي البغدادي (ابن االسراج)- الأصول في النحو، تحقيق: د. عبد المحسين الفتلي، مطبعة النعمان، النجف- بغداد، ١٩٧٣
٢١. محمد محمد إمام داود-معجم الفروق الدلالية، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع،٢٠٠٨
٢٢. محمود الألوسي أبو الفضل، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، المشهور بـ (روح المعاني – الألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت(د.ت).
٢٣. محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (أبو القاسم)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق : عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي – بيروت (د.ت)
٢٤. محمود الجاسم: القاعدة النحوية-تحليل ونقد، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٧، ط:١
٢٥. محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري جار الله -المفصل في صنعة الإعراب، المحقق :د. علي بو ملحم، مكتبة الهلال – بيروت ، ١٩٩٣، ط١
٢٦. مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري (أبو الحسين)، صحيح مسلم، دار الجيل بيروت، دار الأفاق الجديدة، بيروت، (د.ت).
٢٧. منير محمد المسيري – دلالات التقديم والتأخير في القرآنالكريم، دراسة تحليلية، مكتبة وهبة، القاهرة، ٢٠٠٥، ط:١
٢٨. نصرالله بن محمد بن محمد بن عبدالكريم الموصلي (أبي الفتح ضياء الدين)، المثل السائر، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٥.
٢٩. يحي بن حمزة العلولي- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق القرآن، مج: ٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٠، ط: ١